الفصل الثالث عشر

موعد في ڤيزيلي

في تلك الحقول الوديعة بناحية بُرغنديا الفرنسية ظهر الملك ريتشارد في شهر تموز/ يوليو 1190م في أبهى صورةٍ له. كان في أبّهته الخارجية تلك مثال الفارس الشهم والنبيل. طويل القامة ورشيقاً، يتميّز بساقي المحارب الرياضي وذراعيه الطويلتين. وعلى رأسه خوذة مستطيلة من الطراز الرايني، ويغطّي جسده درعٌ من الزرد تحت معطف أبيض يحمل شارة الصليب الحمراء، بينما كان يشدّ إلىٰ وسطه سيفه الحربي الثقيل ذا القبضة الذهبية والذي كان يستخدمه بيديه الإثنتين، ويحمل بيساره ترسه الحربي، المزيّن بصورة أسدٍ يتوثّب نحو اليسار على خلفيةٍ حمراء لمّاعة.

كان الناظر إليه يلاحظ فيه ارتجافاً عصبياً يعود إلىٰ نوع نادر من حمّى الملاريا أصيب به في صغره، ويزيد من هيبته ورهبته. وقد رأى المراقبون في ذلك الارتعاش إشارةً إلىٰ عملٍ دؤوبٍ لدى ذهن متقد ومفرط النشاط. كان أكثر ما يشبه الأسد، وقال عنه مؤرّخ بلاطه جيرالد أوف ويلز: «أجل، كان أكثر من أسد، ومع ارتعاشه المستمر، كان يبدو مصمّماً على جعل العالم بأسره يرتعد أمامه».

كان من السهل بمكان تصوّر ذلك المحارب المرعب يشطر رجلاً إلىٰ نصفين بضربة واحدة من حدّ سيفه لأنّه، كما يقول مراقبٌ آخر: «لم تكن هناك ذراع أفضل مهارة في استلال السيف من ذراعه، ولا أقوى للضرب به». بعد خمس عشرة سنة من حروب الإخوة في بريتاني، وآنجو، ومين، وبواتو والنورماندي، وأكيتان، وكانت آخرها حرباً قادها ضد والده البطّاش، أصبحت الحكايات عن جرأة ريتشارد وقوّته على كلّ لسان، وكذا القصص عن قساوته، وكرمه، وحسّه الشعري. وقد نسب إليه شعراؤه الغنائيون شجاعة هكتور، وشهامة أسخيلوس، وهيبة الإسكندر ورولان، وتحرّر تيتوس، وفصاحة نستور، وتعقّل أوليسيس.

قبل أيّ شيء كانت تبدو عليه سيماء الزعامة؛ فقد كان بطل أوروبا، كان أميراً حقيقياً، وأعظم محارب في القارة، كان الأَمير الذي أحبط محاولات أبيه، هنري الثاني، لحرمانه من الميراث، وجهود إخوته لإضعاف سيطرته على أكيتان، والتي استمرت على مدى السنوات العشر الماضية في ظلّ مناوشات دائمة بين بارونات أكيتان ودوقاتها. كان الابن المفضّل لدى والدته الشهيرة التي أُسيئت معاملتها، إليانور سيدة أكيتان المميّزة.

في سنّ الثالثة والثلاثين، كان شعر ريتشارد لا يزال أصهب اللون، وبشرته متورّدة. وربّما كان هذا الأمر الوحيد لديه الذي يبدو نوعاً ما إنكليزياً. بالنسبة إلىٰ تلك الشخصية الأوروبية بامتياز، كانت الفرنسية لغة المطاردة الطبيعية، وكذلك لغة التعبير في الحب والحرب. وكانت إنكلترا أسهل جزء في مملكته استولى عليه واحتفظ به، حيث رأى في ثروتها الهائلة البقرة الحلوب لحملته الصليبية. فمن دون أي تردّد عرض للبيع المناصب العليا في الكنيسة، واللورديات، والإيرليات، ومناصب الشرفاء، والقصور، والبلدات، والمزارع، وطلب من كلّ مدينة في إنكلترا جوادين مسرجين للركوب وحصاناً للشغل من أجل حربه المقدَّسة.

«أبيع لندن لو وجدتُ لها شارياً». هكذا كان الملك يقول وهو يجمع جيشه الصليبي.

لقد فرض على المواطنين الإنكليز، بمن فيهم رجال الإكليروس، ضريبةً مباشرة عُرفت باسم ضريبة صلاح الدِّين، وكانت عبارةً عن رسم يُجبى على مدى ثلاث سنوات ويبلغ العُشر من دخل الفرد. كانت كلّ أبرشية في البلاد تجمع هذا الرسم وتعاقب من لا يدفع بالحرم الكنسي. أمّا المنضمّون إلىٰ الحملة الصليبية فكانوا يُعفون من الضريبة. ولا شكّ أنّ هذه كانت وسيلة تجنيد ناجعة. وعُرف عن أحد الخيالة أنّه باع زوجته وكلّ ممتلكاتها كي يدفعَ ضريبته. لكن بالرغم من القصد النبيل من هذه الضريبة، فهي لم تحظَ بأي شعبية، شأنها شأن كلّ الضرائب. وقد وصفها روجر أوف وندوڤر بأنها «انتهاك عنيف حجب رذيلة الطمع خلف ستار البر وعمل الخير وأزعج الكهنة والشعب على السواء».

ومع وجود عدد كبير من أعلام الفرسان الملوّنة في المقدّمة وجبال الألب المرتفعة بعيداً تحت سماء الصيف الدافئة، كان الحشد يقدّم منظراً بهياً. وكان المخيّم يبدو مثل مدينة مؤقّتة: «هناك ترون شباباً شجاعاً من أمم مختلفة مجهّزاً للحرب ويبدو مستعدّاً لأن يُخضع الأرض بأسرها، ذلك أنّه لا يوجد مكان يستعصي على الغزو أَو عدوّ يستعصي على القهر»، كما كتب كبير مؤرّخي الحملة الصليبية الثالثة الذي تابع قائلاً: «لن يخطئوا طالما هم يساعدون ويساندون بعضهم، مدفوعين ببسالتهم».

في ذلك البحر من الأعلام المثلثة والفولاذ، كانت الأبرز رايات ملكية تعود إلىٰ ملكين اثنين: الأولى هي راية حمراء لريتشارد الأوّل، ملك إنكلترا وأكيتان، إنّها علم القديس جورج، وهو يتكوّن من ثلاثة أسود ذهبية اللون مستطيلة على خلفية قرمزية. أمّا راية فيليب أغسطس، ملك فرنسا، فهي عبارة عن زوج من زهور الزنبق على خلفية لمّاعة من الأزرق اللازوردي. كان الخيالة في مواجهة الملكين في الصف الأوّل. وعلى جيادهم القتالية الفارهة، والتي

كانت أفضلها الخيول الفرنسية، المسماة تركمانية، كان عدد من النبلاء يرتدون فخورين الرمز الحقيقي لهذا الطقس المهيب، من أجل الصليب، وهو ثوب أبيض خيط به من الأمام ومن الخلف قماش على شكل صليب باللون الأحمر. هذا المعطف يغطّي حُلّةً كاملة من درع الزرد وهو عبارة عن حلقات متّصلة تشكّل ثوباً واحداً من الرأس حتى القدمين لصدّ السهام العربية أَو على الأقل التخفيف من صدمة رأس حربة يطعن بها أحد «الكفّار». كانت خوذهم المخروطية أَو التي تشبه القدور تتلألأ تحت الشمس، وكذلك رؤوس رماحهم، التي تحمل أعلام أسرهم النبيلة المثلثة. كما كانوا يمسكون بأذرعتهم تروساً على شكل الطائرات الورقية تصل إِلىٰ الركاب وتحمي لهم أطرافهم. وعلى جوانبهم نرى مرافقيهم، الذين كانوا يهتمّون لهم بهندامهم، وأسلحتهم، وجيادهم، ويقفون متأهّبين للّحاق بأسيادهم إِلىٰ المعركة.

وراء الخيالة كانت هناك صفوف أقل تسلّحاً فيها الجنود الراجلون والمهندسون. وبينهم عدد لا بأس به من رجال الدين «الذين هاجروا من الدير إِلىٰ المعسكر، وبعد استبدالهم بالقلنسوة الدرع، وبالمكتبة التدرب على السلاح، ظهروا كجنود مسيح حقيقيين». أمّا الرماة في فيالق ريتشارد فكان لهم الدور الأبرز بحكم شغف الملك بقوسٍ تقذف النيران اسمها القوس القذوف. باعتماده هذا السلاح الجبّار، كان ريتشارد ينتهك إرادة روما، حيث كانت قد صدرت مراسيم بابوية ضد استعماله، كما لو أنّ وجود آلة فتّاكة كهذه في ساحة الفروسية هو أمر غير أخلاقي. لكن ريتشارد تصوّر مداها ونيرانها الخارقة وضمن أنّ أعداءه الشرقيين لا يملكون شيئاً يشبه ولو من بعيد تلك السهام والمقذوفات البالستية! من هنا المكانة المميّزة التي شغلها رماة النشاب في طليعة مشاته. ففي معاركه في أنحاء مملكته على مدى السنوات العشر السابقة، كان قد اعتمد عليهم أكبر الاعتماد لخططه الحربية. كما ظهرت القوس القذوف كذلك بحجم أكبر وباسم المنجنيق، وهي سلاح حوّل مفهوم القوس

الميكانيكي إلىٰ قطعة مدفعية صغيرة. وقصة الجنديين العدوّين اللذين اخترقهما سهم واحد أطلقته المنجنيق تثير ضحك ريتشارد، لأنّه صار بالإمكان التقاط ضحايا المعركة بضربة واحدة كما لو كانوا يُحملون مباشرة إلىٰ المطبخ للشواء.

كان المشهد في ڤيزيلي كافياً ليحرّك القلوب ويلهم الشعراء الغنائيين. فمعاني الحب، والنبل، والولاء، والشهامة تجلّت في صفوف الجند:

أنت الذي تمتلىء حبّاً صادقاً

انهض! لا تنم!

فالطائر يحمل لنا النور

ويبشّرنا في هذا المخبأ

بوصول يوم السلام،

وبأنّ الربّ الكريم

سيكافىء الذين حبّاً به

حملوا الصليب، وهم بما يفعلون

يتحمّلون عذاب الليل والنهار

فيُعرف بهذا من يحبّه صادق الحب

كان هذا الحشد الذي استنقذه الرب من الشيطان. «أخذهم صراحةً وبنُبل/ ومن أجله هو اجتمعوا هنا». في دير ڤيزيلي Vézelay كانت تُحفظ رفات مريم المجدلية، هذه القدّيسة التي جاءت إلىٰ جنوب فرنسا بعد وفاة المسيح للتبشير بالإنجيل، قبل وفاتها متنسّكةً هناك في منطقة الألب. وهكذا أضفَتْ هالة القديسة سكينةً ورعةً على ذلك الاستنفار المهيب ومنحته صفة القداسة. وتقليدياً، كانت ڤيزيلي نقطة انطلاق كلّ حملة صليبية.

عندما اجتمع الجيشان في ڤيزيلي اختلطت المملكتان الإنكليزية والفرنسية

اختلاطاً غريباً ومعقّداً، معقّداً أكثر منه مفهوماً. وفي هذه الحملة الثالثة الجديدة كان أولاد المملكتين مصمّمين على تفادي أخطاء الأهل في الحملة الثانية. كان يملأ ريتشارد وفيليب أغسطس شغفٌ أكبر من حماس رحلة الحج. وعلى المستوى عسكري، كان التحدّي الذي يواجههما أكثر رهبة، فكلّ الديار المقدَّسة باستثناء مدينة صور ضاعت من الغرب، وليس مدينة الرّها المهمّة وحدها. الشام ومصر اتّحدتا ثمّ ضمّتا فلسطين إلىٰ الإمبراطورية الإسلامية. وفي صلاح الدِّين كانا يواجهان أخطر قائد شرقي منذ قورش العظيم.

كان الملك الفرنسي عازباً وفي ريعان شبابه، متّصفاً بحساسية شديدة. وكان ريتشارد يعرف أنّه عصبي المزاج، يغضب بسرعة ويصفح بسرعة. لم يكن فيليب أغسطس يهوى المخاطرة، ولا مأخوذاً بولع ريتشارد بالصيد والمبارزة والشعر. وبينما كان هذا الأخير يؤلّف قصائده، أخفق فيليب في تعلّم اللاتينيّة وكان يُعتبر عملياً شخصاً أمّيّاً. ومقابل جواد ريتشارد الإسباني الرائع، كان يفضّل الخيول الوديعة. وعبّر الشاعر برتران دو بورن أحسن تعبير عن اختلاف وجهات نظرهما، فكتب أنّ «السير ريتشارد يصطاد الأسود بالأرانب، فلا يبقى منها واحد في السهول أَو الغابات. ومن الآن فصاعداً، في نيته أن يلتقط أكبر النسور بطائرات ورقية وأن يسخر من طيور الباز بكلب صيد. . . . الملك فيليب يصطاد عصافير الدوري وصغار الطيور بالصقور، ولا يجرؤ رجاله على مواجهته بحقيقة أنّهم، شيئاً فشيئاً، إلىٰ انحدار».

وبالرغم من أنّ فيليب كان الأصغر سنّاً، فقد مرّ عقد كامل على اعتلائه العرش. وفي حين أنّه يبدو شاحباً كمحارب ورياضي أمام ريتشارد، فإنّ سنوات حكمه العشر أكسبته خبرةً عسكريةً، لا سيّما مع الفلمنكيين المشاغبين. كما أظهر حكمه هذا أنّه دبلوماسي ماكر وحازم وإداري لامع. وإذا كان ريتشارد يبدو بأفضل أحواله على جواده، حاملاً سيفه الذهبي ومستعدّاً للضرب به، فإنّ أفضل أحوال فيليب الجلوس على عرشه الفخم، يمسك متأمّلاً بصولجان من

خشب البندق الأخضر ويقيّم علاقاته الخارجية. وكما كتب برتران دو بورن، كان «الملك الفرنسي يسرح بعيداً وأحياناً أخشى أن يقفز عليّ فجأة». غالباً ما بدا الملك الفرنسي واهناً وشارد الذهن. كان موسوساً بأعدائه. ومقارنةً مع فجور ريتشارد، كان محتشماً في كلامه وصعب الإرضاء في مجالات التسلية.

اغتنم ريتشارد كلّ فرصة ليصدم صديقه الحميم بأغاني أكيتان وطرائفها المجدّفة والعابثة، التي كان يلقيها بوقاحة بلكنته الجنوبية المتشدّقة، يزيد من تسليته افتقار فيليب إلىٰ حسّ الفكاهة وتكلّفه الابتسام. ذات يوم، حين سمع فيليب أحد الخيالة يقسم في لعبة للقمار، أمر بتغطيسه ثلاث مرات ثمّ أصدر بياناً يمنع القسم في أنحاء البلاد. أمّا ريتشارد فبالعكس غالباً ما كان يتجاوز يمينه «والقديس جورج!» ليحلف بأجزاء جسد يسوع الحميمة ويستمتع بشتم إكليريكييه، لعلمه بأنّهم عاجزون عن الردّ عليه.

تحت هذا المشهد الخلاّب لجيش المسيح العالمي المتنوع، المنتشر في حقول برغنديا مثل أزهار الربيع، كانت المكائد والصراعات تسبح خفيةً في الأجواء. فحتّى مؤرّخ ذلك الحج البطولي لاحظ ما يجري وقال: «كان ذلك الجيش الهائل يتّقد حماسةً وانتظاماً عسكرياً مشتركاً وإرادةً طيبة. كان بمقدوره أن يكون جيشاً لا يُهزم في العالم أجمع، ولكن كانت تمزّقه الخلافات ويرهقه الشقاق الداخلي. كانت روابط الزمالة منتهكة، والبيت المنقسم على نفسه يخرب».

في تعاطيهما الخاص أظهر الملكان نكد الحبيبين المفترقين. عندما كان فيليب وحده ملكاً، كانت سلطته توازي الجاذبية التي تميّز بها ريتشارد. والآن انقلب دوراهما، فإضافةً إلىٰ حضور ريتشارد القوي هناك جيشه الأكثر عدداً، وأسطوله الأقوى، وخزينته الأغنى، وشهرته الفائقة كمحارب. لقد حجب نجم فيليب كلّياً، واستاء فيليب من الوضع. ويبدو أنّ هذا الاستياء دفع ريتشارد للاعتزاز والتباهي أكثر أيضاً أمام الملك الفرنسي، ليظهر تفوّقه على حليفه في

كل مناسبة. وقد تأسّف أحد المؤرّخين قائلاً: «لو أنّ محبّتهما دامت أكثر، لحظيا بالتشريف لمدى الأزمان، ولعلا شأن المسيحية في كلّ مكان».

عوضاً عن ذلك، شوّش أحدهما على الآخر وعنّفه وأوقع به. وبالرغم من ذلك تمكّنا خلال يومَي إقامتهما في فيزيلي من التمويه على خلافاتهما الشخصية بما يكفي لعقد معاهدة مهمّة. فقد التزما بسلام دائم، وبالتخلّي عن كلّ صراع بين إنكلترا وفرنسا طالما هما في خدمة الله، ووعدا بأن يدعم أحدهما الآخر عند الحاجة وأن يعملا بإخلاص. كما اعتُبرت مملكتاهما مقدّستين طيلة وجودهما في رحلة الحج العسكرية المشتركة. وإذا قُتل أحدهما، فعلى الآخر أن يستلم شؤون عسكر الضحية وأن يضاعف جهوده من أجل المسيح، والذي يخالف هذا الالتزام المقدّس يعرّض نفسه للحرم الكنسي. ودُمغ هذا القرار بختم رئيسي أساقفتهما.

وبقي موضوع أليس Alais عالقاً. وقد بَسَط ريتشارد الأمر بالكلمات الملزِمة التالية: «أسألكَ أن تؤجّل الزواج إلىٰ حين عودتي. أقسم على أن أتزوّج أختكَ خلال أربعين يوماً بعد رجوعي». وبالنسبة إلىٰ فيليب كان هذا كافياً مبدئياً.

بعد تسجيل هذه الوعود والالتزامات على الورق، استلم كلّ من ريتشارد وفيليب صكّ رحلة الحج وصولجانها من رجال الدين. وفي 24 حزيران/ يونيو 1190م، يوم الاحتفال بذكرى ولادة القديس يوحنا المعمدان، ترك جيشاهما المعسكر وانطلقا. كانت الخطّة أن يفترقا بعد اجتياز نهر الرون عند مدينة ليون، كي يتّجه فيليب إلىٰ جنوى حيث حجز خدمات أسطول جنوى للعبور الشرقي، في حين يتّجه ريتشارد إلىٰ مرسيليا لملاقاة أسطوله الإنكليزي. ثمّ كان المقرّر أن يبحرا إلىٰ مسينا في صقلية ليلتقيا من أجل اجتماع أخير قبل أن يبحرا معاً إلىٰ الديار المقدّسة. وسار أبطال المسيح عبر سان ليونارد أوف كوربوني، في مولين Mulins، قرب سانت ماري دو بوا، وكانوا مجتمعين أكثر من مئة ألف

رجل. في جيش فيليب كان هناك عدد من كبار شخصيات فرنسا، بينهم فيليب كونت فلاندريا، وهنري كونت شمباني، وستيفن كونت سانسير. كما لحق جنود ريتشارد مبتهجين الراية القرمزية وأسودها الملكية الإنكليزية.

كانت حماستهم ظاهرة. وتباهى أهل روما قائلين: «لم يعد السؤال عمّن يجب أن يحمل الصليب بل عمّن لم يحمله بعد». ومع ضجيج الدروع الذي يصمّ الآذان، ورفرفة آلاف الأعلام، وتدافع الفولاذ، وصرير العجلات تحت الأحمال الثقيلة، علت الأصوات بالنشيد اللاتيني، ومعناه:

خلف خشبة الصليب، وراية القيادة

يسير جيش لا يتراجع

بل ينطلق بقوّة الروح القدس

كان سكان القرى يستديرون بحماس لتحيّة العساكر ويبكون من شدّة التأثّر. وقد غنّى الشعراء لتمجيده:

أيها الرب العظيم

هؤلاء الشبّان، أين ولدوا ونشأوا؟

تأمّل وجوههم المتورّدة والدافئة!

وفكّر في حزن أمّهاتهم،

وذويهم، وأبنائهم، وإخوتهم،

وأصدقائهم وكلّ من يَمُتُّ بصلة

إلى الذين يشكّلون هذا الحشد الجبّار!

بينما كان شعراء التروبادور يتغنّون بالشجاعة، كانوا أيضاً يبكون على الشبّان اليافعين المنطلقين إلى الحرب ويلعنون «سلالة المفترين» الذين ساقوا إليهم هذا القدر. «مع الفصل الجديد، شهر مايو/ دعاني البنفسج والعندليب

إلىٰ الغناء/ وقدّم لي قلبي الرقيق هدية حبّ جميلة/ لم أجرؤ على رفضها» كانت تقول إحدى قصائد الشاعر الغنائي لو شاتلان دو كوسي، الذي كان هو نفسه جندياً في الحملة: «ليعطِني الربّ نعمة الارتفاع إلىٰ هذا الشرف/ ويسمح لي بأن أضمّ التي سلبت قلبي وعقلي/ ولو مرّةً، بين ذراعي/ قبل أن أمضي إلىٰ ما وراء البحار».

عند مدينة ليون أوقف نهر الرون تقدّم الجند، وكان مرتفعاً بفعل الأمطار الصيفية، فتباطأ الملكان لاستطلاع أحوال الجيش قبل أن يعبر العساكر ويخيّموا في الحقول خارج المدينة. وعندما داست أقدام الجنود مجتمعةً الجسر الخشبي، ارتخى وانهار تحت الثقل، فوقع في المجرى أكثر من مئة رجل؛ ما سبَّب تأخيراً لثلاثة أيام استلم ريتشارد فيها قيادة أسطول صغير من المراكب بين عالية النهر وسافلته. ثمّ افترق الجيشان كما كان مقرّراً وذهب كلّ قسم في طريقه، الأوّل إلىٰ مرسيليا والثاني إلىٰ جنوى. وعلى طريقه في البروفانس استمال ريتشارد جموعاً من المتطوّعين، فنقض المثل الشعبي القائل: «الفرنج إلىٰ المعركة، والبورفانسيون إلىٰ المائدة».